يبقى منغرسا ، من حيث الجذور ، في التربة الميتافيزيقية · وبالفعل فان الاستشراق يضفي، على ما يسميه الشرق ، الخصوصيات والصفات او الفضائل التي لا يطالها العقل ولا يدرك المسافة الفاصلة لها · وهكذا توصف العروبة بروحانية مرتفعة ، كما توصف وبكيفيـــة متوازية ، بحسية جموحة · ويحدد الاسلام بنوع من التعالي اللاهوتي وبتاريخ اقنومي · وفي هذا الصدد نجد أن أعمال ماسينيون ترسي دعائم الماهوية الجذرية ، وتصير الكينونة العربية مؤطرة بفضيلة ثلاثية : التراث الابراهيمي ، الكلمة المنزلة وحق الالتجـاء · ان ماسينيون ، أكثر من اي مستشرق آخر ، شعر في أعماقه باهتزاز مسألة الكينونة · لكن هذا الاهتزاز بقي مجرد اهتزاز لارضاء انعطاف صوفي : فلأن ماسينيون جعل من الحلاج « منقذا مسيحيا » ، فقد آل به الامر الى « تمسيح » الاسلام · اننا لا نعرف ، عنده ، ما هي « المحنة » الاسلامية الخالصة ، ولا كيف يسمي المسلم الالم بما هو الم ·

والمعنى المعكوس الذي نجده عند هنري كوربان هو اكثر حدة · فهذا المستشرق يجعل فكر هيدجر شيعيا (٢) ، هذا الفكر الذي يريد ، بالضبط ، ان يشق طريقه علـــى هامش الميتافيزيقا وعلى هامش كل لاهوت* ولو كان صوفيا ·

ان مثال ماسينيون ، وكوربان ، يتطلب تحليلا مفصلا ، ونحن مضطرون هنا الـــى الاشارة فقط الى موقف ، والى توجيه ، بالقدر الذي تظل فيه هذه الكلمة الاساسية مفهومة في اللغة المشتركة ·

لا شك ان الاستشراق ، بعد الحرب العالمية الثانية ومع تقدم العلوم الاجتماعية ، قـد غير مناهجه وتقنيات ابحاثه · الا ان الاشكالية السائـــدة لم تتغيـــر · فالمستشرقون العقلانيون يبذلون الجهد لتحليل البنية الاقتصادية والمادية للمجتمعات العربية ، لكن الا تصدر هذه العقلانية في العلوم الاجتماعية عن جوهر التقنية والميتافيزيقا ، اذا ما قبلنـــا التأمل الهيدجري ؟

ان الاستشراق ، وهو يقوم بقلب بسيط للروحانية ، يسقط في حقل مادي غير مفكر فيه· فمسألة الشرق ، بما هو شرق ، وباعتباره تنسيقا جذريا مع الغرب ، تنتسى هنا مـــرة اخرى · ومجال الحديث واسع حول المناقشات الاخيرة التي دارت بين المستشرقيـــن والمثقفين العرب ، المتوخية معرفة ما اذا كان العرب خاضعين للحتميـــة الحاسمة ذات الاولية الايديولوجية ، ام للانتاج السوسيو ـ اقتصادي ، ام للممارسة السياسية ·· وهذه الزحزحة لموضوع المناقشة لا تعني مطلقا نوعا من الخروج عن الميتافيزيقا فالامر يتعلق ، في احسن الحالات ، بتاريخانية معممة تطالب الغرب بزحزحة عرقيته المركزة ·

لكن يجب القول ، فيما يرجع لجاك بيرك ، بانه ينجز تركيبا كيماويا من جميع الوجوه، وحسب اندفاعة لعبية خالصة ·

٢ ـ الملمح الثاني السائد عند الاستشراق ، يتمثل في طابعه الوضعي ، الذي لا يتعارض مع روحانيته · وهذا ما يدفعنا الى القول بان هناك وحدة تضامنيـــة بين الجوهرية ، والوضعية ، والميتافيزيقا · ولقد وضع هيدجر في مختلف تأملاته ، السؤال حول التقنيـة